Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان من الطبيعى أيضًا أن تكون ردة الفعل الأولى لغياب كاتب مثل يوسف إدريس، كان كاتبًا كبيرًا كما كان ظاهرة اجتماعية، ردة عاطفية وجدانية تصبّ فيما ندعوه فى حياتنا العامة «بالتأبين»، والتأبين هو ذكر حسنات المتوفى لدرجة المبالغة. والمبالغة مقبولة ويُتسامح بها فى الأيام التى تعقب الوفاة نظرًا لغلبة المشاعر خلالها على أى حديث عقلى أو علمى. ولذلك من الصعب اعتماد عبارات التأبين عبارات دقيقة فى غالب الأحيان إذ كثيرًا ما يشار إلى إنسان عادى مات على أنه كان «عميد قومه»، وعلى أنه كانت له صلات وثقى بمكارم الأخلاق فى حين أنه لم يكن له أبدًا تلك الصلات..

ويوسف إدريس فى عداد الراحلين الذين طالت فترة التأبين بالنسبة إليهم أكثر من اللازم، دون أن يعنى ذلك قطعًا أنه لا يستحق ما قيل فيه من التعظيم والتفخيم. فقد كان بلا شك كاتبًا كبيرًا، ولكن هذا الكاتب بنظرنا كانت كتابته تنطوى على سلبيات كثيرة والمطلوب الآن وجوب الانتقال من مرحلة التأبين إلى مرحلة أخرى تتم خلالها، وبصورة باردة وبعيدة عن المشاعر والانفعالات، دراسة ما خلّفه الرجل، خاصةً وأن يوسف إدريس كان قاصًا وروائيًا ومسرحيًا وكاتب مقالة يفترض أن يقول الناقد والباحث رأيهما فى أعماله، لامختار محله أو عمدة قرية. كاتب من حقه على زملائه النقاد والباحثين، كما من حقه على مجتمعه، المطالبة بكلمة سواء فى سيرته أو فى أعماله، أى بأن يضعه أهل زمانه فى صفوة المثقفين على مشرحة النقد لمعرفة ما الذى يبقى منه للتاريخ. ذلك أن كلمات التأبين لا يمكنها مهما كان قائلها أن تهب الحياة لمن لا حياة فيه، أو بأن تنقل كاتبا من هذه الدار الفانية إلى دار الخلود. فهذه الأخيرة لا يمكن أن ينتقل إليها من الأدباء إلا من كان مستحقًا استحقاقًا نزيهًا فعلاً. وإذا لم يتمكن معاصرو كاتب راحل من أن يقولوا تلك الكلمة النزيهة والحيادية فيه ـ لسبب أو لآخر ـ فلا بد للبحث العلمى من أن ينتظر مجىء جيل لاحق يضطلع بهذه المهمة. وكثيرًا ما يحتاج الحكم الدقيق إلى فترة زمنية خلالها ترسخ أشياء وتتهافت أشياء.

ومع أن فترة زمنية قد انقضت على رحيل يوسف إدريس، وبات من المفترض أن تظهر بحوث جادة ورصينة حوله وحول أعماله، فإن أكثر ما لا يزال يُكتب هو أقرب إلى ما يمكن وضعه فى باب التأبين أو التكريم أكثر مما يمكن اعتباره بحوثًا